أصلح قلبك

الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل

تحرير وتنسيق
وليد عبداللطيف الصيفي

تقديم

هذا الكتاب عبارة عن تفريغ وتنسيق وترتيب لآخر برنامج تلفزيوني سجله شيخنا الحبيب/ حازم صلاح أبو إسماعيل، قبل أن يتم اعتقاله ظلماً وبغياً في سجون مصر، تحت عنوان (أصلح قلبك)، وقد تم بثّه على الفضائيات بعد اعتقاله على هيئة حلقات قصيرة، وقد قمتُ بتفريغه وتحويله لكتاب نظراً لأهمية الموضوع وهو (إصلاح القلب)، وللطريقة الفريدة والمؤثرة التي تناول بها شيخنا الموضوع، جامعاً بين التأصيل الشرعي والعرض العملي التربوي، وألحقتها بتفريغ محاضرة قيمة لشيخنا ذات صلة بإصلاح القلوب وهي (انشغالات القلوب)، وأسأل الله أن يتقبل منا، وأن يعجل بفرجه على شيخنا وعلى بقية علمائنا وشيوخنا الصالحين المصلحين.

أخوكم/ وليد الصيفي

فلسطين – غزة

٢٠٢٢

أصلح قلبك

الشيخ: حازم أبو إسماعيل

مقدمة

هذا الحديث من أهم الأحاديث على الإطلاق، لأنني لا أقصد أن تكون موعظة أو درساً أو كلمات تلقى، وبعد ذلك ما دمت قد ألقيتها فقد بلّغت والسلام.. وإنما أريد أن تتحول هذه المعاني إلى عمل نظامي، يتلقفها الإخوة بكل طاقتهم وقلوبهم، ثم يحولونها إلى لقاءات مدارسة وتدارس وتعميق، فإذا ما فعلوا ذلك أصبحت سهلة التنفيذ، وبذلك نبني عليها نواة الأمة.. نبني عليها أمة نرجو أن تكون صالحة.

نتحدث عن القلوب..

ولا يمكن أن تتأسس دعوة ورسالة أبداً.. ولا صرح لهذا الدين.. إلا على قلب صالح.. هذا هو سلطان الدين..

من قوانين الدين الذي لا يمكن أن تنخرم: لا تقوم لهذا الدين قائمة إلا إذا تأسّس على أرضية من القلوب الصالحة..

فاغرس الراية في قلب صالح تُرفع، أما إذا غرستها في قلوب خاوية مريضة غير صالحة فلا يمكن أن تتأسس هذه الراية وتعلو.

وإنما إذا أردت أن تغرس وينبت غرسك لابد أن يكون القلب طاهراً نقياً طهوراً في منتهى الإقبال على الله عز وجل.

لذا نريد أن نتناول أمر قلوبنا..

ولكنني لا أقصد أبداً أن نتناول أمر قلوبنا علمياً.. ولا بإيراد الآيات والأحاديث والشواهد، وإن كان هذا هو الأساس الذي نبني عليه، إنما أقصد أن نتناول حياة قلوبنا من الناحية العملية.. ما المطلوب منا أن نعمل؟

أنتم يا معشر الدعاة والمشايخ والعاملين للإسلام.. تقولون أنه لا يفلح يوم القيامة "إلا من أتى الله بقلب سليم".. ثم تأخذون في شرح معنى القلب السليم في الآيات والأحاديث، لكن من الناحية العملية نريد أن نراجع معاً حوادث ووقائع وظروف محددة.. تلتقي بها قلوبنا وتخرج سليمة طاهرة.. هذه هي حياة القلوب، لذلك سنطرح نقاط محددة نفهمها ونتدارسها لنطبقها وننفذها ولتتحول إلى منهاج عمل..

عمل القلب

قال الله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾[1] يريد.. فالإرادة عمل قلبي..

ويقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

ويقول النبي "صلى الله عليه وسلم" عن الصلاة: "ليسَ للعبدِ من صلاتِهِ إلا ما عَقَلَ منها"[3]، صلاة من غير قلب لا يقبلها الله عز وجل.

ويقول الله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[4] فأداة العقل في الإنسان هي القلب.

لك أن تتساءل الآن: وأنا في هذه الحالة، هل سيقدر قلبي أن يعقل لئلا تضيع صلاتي كلها دون أجر؟

---

[1] الإسراء: ١٨.
[2] هود: ١٥-١٦.
[3] ضعيف.
[4] الحج: ٤٦.

صليتُ بكذا جزء في القيام.. ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت..
في الدعاء.. تدعو وتدعو.. ولكن النبي "صلى الله عليه وسلم" يقول: "واعلَموا أنَّ اللهَ تعالَى لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ"[1] أي غافل غير حاضر.. إذن كيف أدرب قلبي وأحضره ليُستجاب دعائي؟

أحوال القلوب

يذكر الإسلام أنه هناك قلوب كالكوب، صُبّ فيها ماء تمتلئ ماء، صُبّ فيها خمر تمتلئ خمراً، ولكن هناك قلوب: "كالكوز مجخياً" أي مقلوب، لا تستطيع وضع شيء فيه، تسمع موعظة فلا تتأثر، قرآن بلا فائدة.. يموت الناس حولك فلا تتعظ.. فتخاف أن يكون قلبك كذلك.
يقول النبي "صلى الله عليه وسلم": "لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ"[2].. انظر في الغرفة حولك.. لا تستطيع أن تنظفها من ذرات الغبار، فكيف ستنقي قلبك من أي ذرة كبر؟!
قضية القلب خطيرة ومهمة جداً، فأنت مطالب بامتلاك قلب سليم بلا ذرة كبر واحدة!
وفي الحديث قيل لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ: "أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال: كلُّ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ، قالوا: صدوقُ اللسانِ نعرفُه فما مخمومُ القلبِ؟ قال: هو التقيُّ النقيُّ لا إثمَ فيه ولا بغيَ ولا غِلَّ ولا حسدَ"[3] فكيف تضمن أن تصنع قلباً كهذا؟!

كيف تصل إلى ذلك؟!

لا يفلح يوم القيامة ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[4] كيف أجعل قلبي سليماً؟

---

[1] ضعيف.
[2] صحيح مسلم.
[3] صحيح.
[4] الشعراء: ٨٩.

يقول الله جل وعلا عن جهنم: ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ ﴾[1].. النار تختبر يوم القيامة القلوب، تأتي على القلب وترى ما فيه، والنار ستعلق في شوائب في قلبك.. فكيف أنقي قلبي من هذه الشوائب لئلا تحترق بالنار؟

يقول الله عز وجل: ﴿ * أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ ﴾[2] تُفتضح القلوب ويتناثر ما فيها، ويصبح القلب كالصفحة المفتوحة يوم القيامة.

في الحديث: "أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أعْدَدْتَ لَهَا قالَ: ما أعْدَدْتُ لَهَا مِن كَثِيرِ صَلَاةٍ ولَا صَوْمٍ ولَا صَدَقَةٍ، ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: أنْتَ مع مَن أحْبَبْتَ."[3]

في المقابل.. يوم القيامة: ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ ﴾[4].. في أحد المرات وأنا صغير، ذهبتُ لرجل يشوي السمك في السوق، ورأيت كيف يقلب السمك على أسياخ النار، فكان مشهداً فظيعاً، فلما سمعت آية: "تتقلب فيه القلوب والأبصار" وآية: "تطلع على الأفئدة"، عرفتُ أن قضية القلوب قضية كبيرة، قلبي سيتقلب ويُختبر يوم القيامة..
كيف أصنعه إذن بعدما فهمتُ خطورته؟
هذا ما نريد أن نتدارسه..

---

[1] الهمزة: ٧.
[2] العاديات: ٩-١٠.
[3] صحيح البخاري.
[4] النور: ٣٧.

القلوب المريضة والسليمة

القلب المريض الفاسد فظيع جداً، بل هو ضياع مبين.. لدجة أن يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].. هناك قلب سليم نظيف ليس فيه ذرة غبار، وهنا قلب أعمى..

انظر الفرق البعيد بينهما.. هنا قلب يقول عنه الله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾[2].. نفاق..

ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[3]، النفاق موجود في قلوبهم، هناك على الجهة المقابلة: ﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾[4]، وهنا: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾[5].. انظر الفرق الشاسع بينهما.. بين إيمان وكفر.. شيء عجيب ومخيف!

تعال لنتناول معاً هذا الفارق الشاسع.. لتعرف عن ماذا نبحث وماذا نستكشف في هذا الكتاب..

يقول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[6] أتعرف من يخيط شيء، أو ينسج موبيليا خشبية، أو يدخل منظار في الأوردة، هذا هو معنى: "كذلك نسلكه في قلوب المجرمين".

إذن.. كيف سأعرف أن قلبي بهذه الصورة؟!

كيف أطهر قلبي من أن يكون فيه مثقال ذرة من كبر؟

وكيف أحذر من "نسلكه في قلوب المجرمين"؟

---

[1] الحج: ٤٦.
[2] التوبة: ٧٧.
[3] النساء: ١٤٥.
[4] المجادلة: ٢٢.
[5] التوبة: ٧٧.
[6] الحجر: ١٢.

يقول الله تعالى عن طائفة مؤمنة، بل عن مجموعة من الصحابة الأكرمين: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ﴾[1].. يا للمصيبة.. هؤلاء الصحابة هذا حالهم، فكيف حالي أنا وأنت؟ لماذا قلبي مطمئن؟!

لأجل كل ذلك نقول:

إن صناعة القلوب إقامة للدين.. رفع لرايته.. ولا يتم ذلك إلا بالانتباه الشديد لها..

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾[2].. أتعرف القلب الذي يشبه شيء غير مستقيم! الزيغ أن تعيش الطاعة والمعصية مع بعضهما، لا الطاعة تطرد المعصية ولا المعصية تتدحر أمام الطاعة، هذه مشكلة أعظم وأخطر.

المطلوب مني: أن أتدارس أحوال قلبي وأصلحه، أن أجعل السنة القادمة كلها رعايةً للقلب، ليكون قلبي نظيفاً منيراً مشرقاً يرضاه الله عز وجل.

والله يا إخواني.. هذا الطريق هو عين ما يهدينا إليه ربنا جل وعلا.. وعين ما يهدينا إليه ديننا.

إصلاح القلب قضية الإسلام الكبرى

إن أكبر قضية من قضايا دين الله عز وجل أن يكون القلب صالحاً، وقد أبت إرادة الله عز وجل أن تنتصر أو تنجح دعوة والقلب فاسد، هذا مستحيل، وإنما لابد أن يكون القلب صالحاً ليتأسس عليه نجاحك، كلما دخل القلب الدخن تجد فيه انحراف، جاء صحابي إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" وقال له: "نحن في خير، فهل بعد هذا الخير من شر، قال: نعم، وهل بعده خير؟ قال: نعم وفيه دخن" أي خير غير صافي، فقضية القلوب قضية

[1] التوبة: ١١٧.
[2] الصف: ٥.

خطيرة جداً، وإذا أردنا خلافة على منهاج النبوة، فينبغي أن نتعلم منهاج النبوة في صلاح القلب.

قلوب خطيرة

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[1] هذه أصناف مخصوصة خلقها الله لجهنم، قلوبهم غير مستعملة، لا تؤدي غرضها، لا يفقهون أي لا يفهمون، حتى لو كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب، مطلوب منك أيضاً أن يفقه قلبك، لأنه في الإسلام علم الأداة غير علم النتيجة، أي الأداة أنه علّم بالقلم، وهذا يختلف عن أن تعلم أنه لا إله إلا الله، حتى لو جهلت القراءة والكتابة، فمطلوب منك أن تعلم أنه لا إله إلا الله، ولو سماعاً وتلقيناً.

مَن لديه قلب لا يفقه به حاله كما قال تعالى: "وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون" لا وعي لديهم..

انظر الصفة العجيبة للقلب لتعلم خطورة قضية القلوب، تأمل عندما تطفئ النور فجأة! فيقول الله عز وجل: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا" أغفلنا أي انطفأ النور.. ذهب ضياء القلب.. فكيف ستؤسس عليه؟! هذا قلب مظلم ميت، "أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً"، أترى الفرق الشاسع بين نوعي القلب! قلب حي وله نور وبصيرة، وقلب ميت مظلم انطفأ وأغفلنا ذكره!

ولتعرف صفات القلوب في مدى انضوائها تحت الحق أو انصرافها عن الحق، قوله تعالى: "وأفئدتهم هواء"، ماذا يعني هواء؟

لكي يصبح لديك بيت تضع فيه لوحة لابد من جدران، ولكي تضع فيه سرير لابد من أرض، ولتحميه من نزول المطر لابد من سقف، لكن.. هواء!! كالقلب المقلوب.. كالكوز مجخياً.. هذا قلب لا تستطيع أن تضع فيه شيئاً.. هواء لا يعرف أن يفكر، لا يعي ولا يفقه ولا يقرر.. هذه مصيبة..

---

[1] الأعراف: ١٧٩.

عندما يأتي هذا التعبير في القرآن يجب أن أخاف على قلبي من هذا المآل، يجب أن أبحث عن التثبيت كيف يأتي.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ ﴾[1]، أصبح فؤاد أم موسى فارغاً، لا تعرف أن تتحكم في تفكير، وكادت أن تقتل ابنها بأن تصرخ وتقول: هذا ابني، فتدلهم على أنه ولد من بني إسرائيل فيقتلوه، فلو أنك تركت قلبك بهذه الصورة: "فأعقبهم نفاقاً"، "هواء"، "فارغاً"، "حمية الجاهلية"، "وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب".. هذا ضياع كامل والعياذ بالله.

أنت تحتاج أن يتولى الله عز وجل قلبك بهذا الرباط من الإيمان: "لولا أن ربطنا على قلبها"..

خفاء القلب

خطورة أمر القلب أن فيه خفاء، وأنه غير واضح.. وليس بمجرد أن تنظر إلى قلبك تعرف أنه صالح أو مريض.. لا..

لو وجهك عليه بعض الشحم سيقول لك أحدهم: اذهب اغسل وجهك، لكن المشكلة أن القلب لا يظهر بسهولة على حقيقته، فرق شاسع بين القلب الصالح والقلب المنحرف.. أمر القلب أخفى من دبيب نملة عرجاء على صخرة ملساء في ليلة ظلماء.

ممكن أن يقول أحد الآن: أرهقتنا يا شيخ! قمة الإيمان هنا وقمة النفاق هناك! والأمر يتسرب بخفاء وغير ظاهر! ما الحل؟

هذا ما نريد في هذا الكتاب أن نقف عنده..

نريد أن نفهمه وندرسه ونعرف أسبابه وطرق علاجه، ليس بطريقة السرد العلمي وإنما بطريقة التدارس العملي..

[1] القصص: ١٠.

تجلس مع إخوانك تتذاكروه بينكم، تجيء بداعية تعطيه الفكرة ليكلمك حولها ويجيبك على سؤالك، وتستخرج الأحاديث والآيات التي تتناول هذا الأمر.

انحراف في الفهم والعمل

مصيبتنا أننا نتكلم بالعموم، نتكلم عن صلاح القلب في خطبتين أو لقائين، ولا نتعرف على هذه التفاصيل..

ومصيبتنا أننا لما تعلمنا الإسلام، تعلمناه كماديات وليس قلبيات، هذا ما حدث في جيلنا، تجلس في المسجد أو البيت تريد أن تنهي الورد أو جزء القرآن فقط، بينما النبي "صلى الله عليه وسلم" يظل طول الليل يصلي بآية واحدة.

لكن حقيقة الدين أن تستدعي قلبك، تحرك الآية قلبك فتظل معها طوال الليل، لكن أنت تعمل كالعداد، تشتري عداد لتقول (سبحان الله) كذا مرة، لكن المقياس عند الله هو حالة القلوب.

ستقول: هل أترك العدّ يا شيخ؟

لا، لا تترك العدّ، لكن ليس هذا هو الموضوع، ليس بالضرورة أن تسبح ألف مرة، اجلس وقل (سبحان الله وبحمده) بوعي وحضور قلب، فالإيمان في دين الإسلام يتم تعليمه قلبياً وليس عددياً فقط.

نعم هناك في الإسلام أعداد ومقادير، لا مانع من ذلك، تصلي الظهر أربع ركعات، وتطوف سبعة أشواط، وتختم القرآن في أقل من شهر، إنما ليس معنى هذا أن تتحول إلى قلب كالجلدة الميتة لا تشعر.

فالنبي "صلى الله عليه وسلم" يعلمنا حركة القلب وليس عدّاد العمل.

قضية القلوب هي القضية الكبرى في هذا الدين، بدون الانتباه لها والاهتمام بها سنكون خائنين، لأننا نعرف أنه لن نحصل على نتيجة بدون صلاح القلب، عندما تصبح قائداً تقود إخوانك بدون صلاح القلب، أو عندما تؤدي عملاً أو تدعو دون صلاح قلبك.. فأنت خائن..

تأمل حال سيدنا عمر بن الخطاب، عندما أحسّ بالعجب بنفسه، صعد المنبر وقال للمسلمين: (لقد كنت أرعى الإبل، وعندما أغلط يضربوني بالعصا)، فقال له ابنه: ماذا فعلت؟! فقال: (لقد رأيت نفسي كبيرة فأحببت أن أكسرها).. هذا رجل يؤسس قضيته على صلاح قلبه، لذلك كانت أعمالهم صالحة وآثارهم مباركة.

القلب أثر لبيئته

القلب مثل قطعة قطن، بللتها بالماء ووضعتها في طبق نظيف، لكن طوال الوقت يقع عليه غبرة وذباب وحشرات، بعد يومين أو ثلاثة أيام ستجد هذه القطنة التي كانت نظيفة بيضاء.. ستجدها مستقذرة، القلب بهذه الصورة تماماً.

القلب حمّال لما حوله، يقول النبي: "تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً..."، فتجد القلب يحمل ما يعرض عليه، لذلك قال الله تعالى في آية يجدر بك أن تكتبها وتعلقها عندك على حائط في بيتك: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة"، لديك ثلاث قنوات: تسمع، وترى، وتعي (تعقل)، بهذه الطريقة تحولت من عدم العلم إلى العلم، قبل أن أسألك عن حال قلبك، ستُسأل عن هذه القنوات الثلاث يوم القيامة: ماذا عملت فيها؟ هل ضبطتها أم تركتها مفتوحة دون ضبط؟ قال الله تعالى: "إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً"، ستُسأل يوم القيامة: عن أذنك.. ماذا كنت تسمع؟ وعن ماذا كنت تمتنع عن السمع؟ وما الذي كنت تطلب سماعه مرة أخرى؟

وكذلك بصرك؟ وقلبك؟ ما هي الموضوعات التي كنت تشغل قلبك بها وتنتبه لها؟

أنت تعيش في بيئة تحيط بك، عندما تنزل الشارع: ماذا تسمع ممن حولك؟ ومن يشتم؟ ومن ينظر؟

وتتأثر بحال المجتمع والدنيا حولك: المشاكل في البيوت، وبين الأقارب، والجيران، والتنافس في العمل..

قلوبنا مغموسة في هذا المجتمع، لا يمكن أن يعيش القلب في هذه البيئة، ويكون قلباً كما يريد الله عز وجل.. سليماً طاهراً نظيفاً.. لا يمكن أن يجتمعا.

ولن نكذب على الله عز وجل، نحن نريد إقامة عمل إسلامي وأن ندعو إلى الله، نريد أن نقيم صرح الإسلام والإيمان، وأن نعيد بعث التقى من جديد.

ولكن!! تريد أن تقنعني أن قلبك المغموس في هذه الحياة طاهر ونظيف كما يريد الله!! لا، هذا كذب وخداع.

ونحن نريد أن نكون صادقين.. "وكونوا مع الصادقين".

لا تصاحب إلا مؤمناً

قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ ﴾[1]، والنبي "صلى الله عليه وسلم" يقول: "لا تصاحبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلا تقيٌّ"[2] فأنت مطالب ألا تخالط أحداً أبداً إلا إذا كان صالحاً تقياً.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ ﴾[3]، ويقول النبي "صلى الله عليه وسلم": "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صاحِبِ المِسْكِ وكِيرِ الحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ مِن صاحِبِ المِسْكِ إمَّا تَشْتَرِيهِ، أوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أوْ ثَوْبَكَ، أوْ تَجِدُ منه رِيحًا خَبِيثَةً".[4]

الآيات والأحاديث تقول لك: لا تصاحب إلا صاحباً صالحاً.. ولكن ستقول لي: تريد مني أن أدعو إلى الله وأبلغ الدعوة، والحديث يقول: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"، كيف أجمع بينهما؟

الجواب: المطلوب منك أن تخرج كأنك في بعثة رسمية، في مهمة للتأثير على الناس، ولست في مهمة محايدة، أنت تخرج تكلم الشخص لتأثر فيه، وليست علاقة زملاء

---

[1] الزخرف: ٦٧.
[2] حسن.
[3] الحجر: ٨٨.
[4] صحيح البخاري.

وأصحاب، ليس علاقة تأثير متبادل بحيث أؤثر فيك وتؤثر فيّ، هذا لا ينبغي أن يكون.. بل أخالطك وأنا الذي أؤثر فيك، هذه هي مهمتي.

لكن إذا أردت أن تصاحب: "لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي"، لماذا؟ لأن القلوب حمّالة.. تخيل أنك تمشي مع شخص لأول مرة تتعرف عليه، رأي منظراً ففوجئت به يمصمص شفتاه، ويقول: يا سلام.. تسأله: ما الأمر؟ اكتشفت أنه سمع أغنية أعجبته، وأنت لا تسمع أغاني، أو رأى سيارة فارهة..

هذا كله فوهة تصب في القلب، تملأ قلبك به، لذلك لا ينبغي لك أن تجالس هكذا شخص.

تعال نكمل الحديث الذي ذكرناه: "تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ"[1]، خلق الله عز وجل القلب في أصله أبيضاً صافياً كالصفا، جاءت عليه نكتة سوداء، ثم ثانية، ثم ثالثة... فيتراكم زيت وشحم أسود على القلب، فيفسد القلب..

لذلك لا علاقة ولا شأن لنا أبداً بما يحيطنا من البيئات الدنيوية، لا تنظر إلى أهل الدنيا، لا تسمع من أهل الدنيا، حتى في العمل.. حاول أن تنتقل من عملك إلى عمل مع الصالحين، وتسكن مع الصالحين، وتتزوج من الصالحين، وتصاحب الصالحين، وتخرج رحلة مع الصالحين، هكذا تعود الحياة إلى القلب.

أسمعك تقول لي الآن: يا شيخ، لا نريد كلام نظري مستحيل، من أين لي ببيئة صالحين؟ افرض أن عملي مع الصالحين، وبيتي من الصالحين، لكن في الطريق من بيتي إلى عملي، والسائقين، وما أسمعه منهم ومن الشوارع!! ماذا أفعل؟

أنت مطالب بغض البصر، قال تعالى: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم" لم تقل الآية: يغضوا من أبصارهم عن الحرام.. لا، بل لا تنظر إلى شيء لا يعنيك حتى لو كان حلالاً، يقول النبي "صلى الله عليه وسلم": "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، عندما ترى بيت عظيم فتقول: أتمنى قبل أن أموت أن أسكن فيه ولو شهر واحد!! لا.. بل قل: اللهم

[1] صحيح مسلم.

إني أريد قصراً في الجنة.. اجعل الآمال التي تدخل قلبك من نوع مختلف.. أبدل آمالك الدنيوية بآمال أخروية.

أحد المرات ذهبت إلى بلد أوروبي منفلت، وجدت الأخ المسئول عن العمل الإسلامي هناك من أكثر الإخوة جدية، فقال لي: في بداية قدومي هنا مكثتُ كذا سنة، ثم جاءني قريبي فقلت له: غداً نفعل كذا، فقال لي: إن شاء الله، فأول ما سمعت كلمة (إن شاء الله) ارتفع حاجباي واندهشت وقلت له: يااااه، لأول مرة منذ كذا سنة أحد يذكرني بـ (إن شاء الله)، فوجئتُ أني لم أعد أقولها أبداً، فمن ساعتها قلت: لابد أن أعود إلى البيئة المؤمنة التي إذا نسيت ذكرتني.

كيف النجاة من المجتمع الدنيوي؟

لذلك لا نريد أن نخدع بعضنا، مجتمعاتنا لا تذكرنا بالله عز وجل، فماذا نفعل؟
احفظ هذه الكلمات الثلاث: اقطع، أبدل، أوصل..
اقطع علاقة معينة، بل علائق.
أبدل ببيئة أخرى، تصنعها تصنيع.
ثم أوصل مع هذه العلاقة والبيئة الجديدة.
بدايةً.. وقد أدركت أن البيئة القائمة ليست هي البيئة التي نقصدها، فإنك تريد الآن أن تقطع صلتك بهذه البيئات.
ستقول لي: يا شيخ، هل مطلوب مني أن أقطع صلة الرحم؟ وأن أقاطع الجيران؟
لا، ابق على علاقتك بالجيران والأرحام والأصحاب وزملاء العمل، ولكن كالبعثة، أنت تؤدي مهمة، ولكن ليست هذه بيئتك.
هذه الاضطرارات والضرورات اليومية.. تخرج من بيتك، تقابل جارك، في المصعد، في التاكسي، تطرح السلام وتطمئن على حاله وأهله، وتنتهي العلاقة إلى هنا.. وكذلك صلة الرحم، تتصل عليهم، تهنئهم بالعيد، تزوره بهدية وزيارة خفيفة، ثم تغادر.

لكن.. أن تكون كل حياتك معهم!! هذا لا يجوز، وإلا تكون كأنك غمست القلب النظيف الطاهر النقي في بيئة فاسدة..

كيف تكون فاسدة ولماذا؟

هو لا يصلي أول ما يسمع الأذان، لا يغلق التلفاز لو أتى كلام فارغ أو مشهد معصية.. فأنت على الأقل ستتبلد تجاه ما تعايشه معه، لن تقلق أو تتألم أو تندم كما كنت من قبل..

كيف تصلح قلبك؟

الأركان الخمس لإصلاح القلب..

الآن.. ستسأل: لأصلح قلبي.. ما هي بيئتي؟ لا أجد أحد من الصالحين!

تعال أُصنِّع لك بيئات معينة.. بيئات عملية للتطبيق والتنفيذ.. تشكل أركان رئيسية لإصلاح القلب عملياً..

سأعطيك خمسة أمور، التزم بها لو كنت صادق فعلاً، احرص عليها لو كنت فعلاً لا تكذب ولا تدعي..

سأعطيك خمس أركان تستطيع أن تصل بها إلى الله.. تعينك على الوصول إلى قلب سليم طاهر يرضاه الله..

مطلوب منك: يومياً.. أن تسمع أو تقرأ على الأقل مرة واحدة يومياً عن كل ركن من الأركان التالية.

الركن الأول: معايشة البيئات الخمس

أولاً: معايشة النبي "صلى الله عليه وسلم"

يجب أن تعايش النبي "صلى الله عليه وسلم" بشكل كامل وحقيقي..

كيف كان صاحباً لأصحابه؟

من كان يصاحب؟
مع من كان يتاجر؟
مع من يسافر؟
مع من يسمر؟
كيف كان ينام؟
ماذا يأكل يشرب؟
ماذا يلبس وكيف؟
ما الشيء الذي لبسه مرة واحد ثم أرسله لصاحبه وقال له: أحضر لي بدلاً عنه؟
كيف كان يضحك؟
كيف كانت جلسات أصحابه معه؟
أن تعايشه زوجاً.. أباً.. صاحباً.. تاجراً.. داعياً.. قائداً.. سياسياً.. عابداً.. صابراً.. أخاً..
يجب أن تعيش مع النبي "صلى الله عليه وسلم".. لتتمثله في كل حياتك..

قال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾[1].

ثانياً: معايشة الصالحين

عِش مع الصالحين وتعمق في حياتهم وشخصياتهم وقلوبهم وحالهم..
تأمل في سيرة عثمان بن عفان.. كان محبوباً جداً، عندما يمشي في الشارع الكل يحيط به، والقلوب تهواه، لماذا؟
تأمل في سيرة جعفر بن أبي طالب..
والصالحون ليسوا فقط صحابة، منهم لقمان، ومنهم التابعين، والعلماء المعاصرين..
أريدك أن تعيش حياة الصالحين كما عشت حياة النبي "صلى الله عليه وسلم"..

[1] الكهف: ٢٨.

تأمل في شخصية عبد الله بن عمر.. إنه بعظمة عمر بن الخطاب.. عندما تقرأ عنه ستظل شهرين أو ثلاثة أشهر لا تستطيع تركه وتجاوزه..

كان عبد الله بن عمر رجلاً كبيراً من كبار هذه الأمة، لدرجة أن سيدنا عمر بن الخطاب كان لديه استعداد أن يُدخل عبد الله بن عمر ضمن السبعة الذين سيعهد إليهم بالخلافة بعده، لكنه قال: يكفي واحد من آل الخطاب، وجعله يدخل معهم في الشورى، لأنه كان يؤمن برجاحة عقله..

عايش الصالحين حتى تمتلئ بهم، فتجد نفسك بدلاً أن تقول: هل سمعت ما فعل فلان بالأمس؟ تقول: هل رأيت ماذا فعل عبد الله بن عمر عندما حصلت الحادثة كذا؟

هذا هو معنى إبدال البيئة ببيئة جديدة.. بيئة الصالحين..

وأنا – بحمد الله – نشأت هكذا في البيت، كان أبي يتكلم مع ضيوفه عن هذه الشخصيات كما لو كان يتكلم عن شخصيات المجتمع الذي يعيش فيه، فصارت هذه الشخصيات حية بيننا.

ثالثاً: معايشة الآخرة

ماذا سيحصل في الآخرة؟ ما هي أحداث الآخرة وتتابع أهوالها؟

لابد أن تتأمل في الأحاديث التي تذكر: من عمل كذا وكذا.. سيحصل له في الآخرة كذا من ثواب أو عقاب..

تذكر أن الفكرة تكمن في إبدال بيئة القلب، لأن هذا القلب ممكن أن يلتقط من مكان حب الانتقام، ومن مكان آخر يلتقط المادية المفرطة، ومن لقاء آخر يلتقط أن يتميز ويستعلي على الآخرين حتى لو كان هو شحاذ والآخر شحاذ..

أمراض القلب متنوعة وكثيرة، وطالما أنك لا تعيش في بيئة لا تهدي إلى الخير، فإنك لن تُهدى إلى الخير.. ولن يصلح قلبك..

هناك الكثير من مواقف الآخرة التي لابد أن تعايشها بقلبك وعقلك..

خذ مثلاً موقف الشفاعة.. فوجئتُ أن كل عمل من الأعمال الصالحة قد يكون له شفاعة، لأن ما ورد في النصوص عن ١٥ عمل تقريباً أن لها شفاعات خاصة بها، يبدو – والله أعلم – أن كل عمل صالح له شفاعة، مثلاً: التيامن به شفاعة، أنقذت أحد من مشكلة له

شفاعة، سترت مسلماً له شفاعة، امرأة محجبة سترت عوراتها لها شفاعة، القرآن يشفع، والصيام يشفع، وهكذا..

عايش ذلك الرجل الذي أُمر به أن يذهب به إلى النار، فجاء عمله كذا وأخذه واستنقذه من الملك الموكل بأن يذهب به إلى النار وأدخله الجنة، والحديث صحيح.

فتصبح تمشي في الدنيا.. في الشارع.. وفي ذهنك حالة من حالات المعايشة لبيئة مختلفة، تعيش عيشة أهل الجنة، تعيش عيشة الناجين، عيشة من أُمر بهم إلى جنان النعيم.. يصبح هؤلاء ومن يتشبه بهم هم أهلك..

تعيش مع أحاديث النبي "صلى الله عليه وسلم": "غفر لفلان، واقتص من فلان، وعفا عن فلان..."، عندما تفهم وتعرف كل هذا فإن حياتك كلها ستتغير..

رابعاً: معايشة قضايا الإسلام

الكثير منا يأكل أفضل طعام ويشرب أفضل شراب، ويجلس في بيته يفتح التلفاز ويسمر على فيلم ليلاً، ولا ينتبه أنه في هذا الوقت مسجد إبراهيم الخليل في فلسطين قد قسمه الصهاينة منذ أكثر من عشر سنوات، وجعلوا نصفه مصلى لليهود الأنجاس يدنسونه بديانتهم اليهودية المنحرفة، وأنت تعيش وكأن شيئاً لم يحدث!

والدك وجدك ولد وعاش ومات وهناك مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله في روسيا، ممنوع من رؤية المصحف، وممنوع أن يسمع أذان ويصلي، ولا يعرف أصلاً معنى مصحف، ورأيتهم بنفسي بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في المسجد الحرام يقولون عن صلاة الفجر (The first صلاة)، والظهر ..Second، يقول لي: منذ ولدنا ونحن ممنوعون أن نتعلم ديننا.

كل هذا وأنت تعيش ولا تشعر بشيء!

عندما تستحضر قضايا المسلمين.. في كشمير وكوسوفو والبوسنة والهرسك.. في أفغانستان.. سوريا.. مصر.. فلسطين.. ستبدأ تستشعر قول القائل:

إن في الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع الباصرِ

فطنٌ لكل مصيبة في ماله فإذا أُصيب في دينه لم يشعرِ

ويبدأ القلب يستحضر ويفيق من غفلته.. ويتزكى..

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[1] فالقرآن استخدم قضايا الاستضعاف والظلم الواقع على الناس ليحيي القلب.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾[2] ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم"، من أنت وما هي مهمتك؟

جعلك الله مستخلفاً على الأرض، بهذا المعنى يحيا القلب، فبدلاً أن يكون همك أن تشتري أحدث سيارة، أو تسكن في أرقى شقة، أو تغير جوالك القديم بأحدث وأجمل.. هذه قضايا التافهين الساقطين، الذين لا تشغل قلوبهم قضايا الدين والإيمان.

وهذه البيئة.. بيئة معايشة قضايا الأمة.. تحرك القلب تحريكاً وتحييه..

خامساً: معايشة كلام رب العالمين

هذا العنصر يصلح أن يكون العنصر الأول، لكني أخرته عمداً لأهميته، بعد أن عايشت النبي محمد "صلى الله عليه وسلم"، والصالحين، الآن ستعايش فوق ذلك كلام رب العالمين.. تعايش كرم الله، لطف الله، تدبير الله، تعايش أخلاق ربك.. صفاته سبحانه.. تستحضر من هو رب العالمين.. لئلا تكون ممن قال فيهم: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[3].

في أحد الأيام كنت في طريق صحراوي ومعي صحبة، تعطل إطار السيارة ونزلوا لتغييره، نزلنا في الطريق خالي تماماً، والدنيا سكون تام، ولا يوجد أي ضوء، نظرت ورأيت ما أصغرنا بجانب الملك والملكوت، ولا زلت منذ ذلك الوقت عام ١٩٨٤م وبعد أكثر من ٢٥ عام، كلما ذكرت تلك اللحظة أشعر بصغري وعظم ربي سبحانه، هذا الهواء يحركه بأمره سبحانه، والأرض بأمره، المكان المظلم الذي لا أراه وتخرج منه الذئاب والثعالب.. أيضاً بأمر الله جل وعلا.

---

[1] النساء: ٧٥.
[2] الأنعام: ١٦٥.
[3] الأنعام: ٩١.

كيف تعايش الله عز وجل إذاً؟

تعايش الله جل وعلا من خلال آيات القرآن.. هي التي تشرح لك من هو الله؟ ومن هو رسول الله؟ وما قضايا الإيمان؟ وما قضايا الآخرة؟ وما قضايا المسلمين؟ كيف يصلح قلبك وكيف يفسد ويمرض؟ كل هذا تجده في القرآن.

لكن ليس أن تتعامل مع القرآن كعداد فقط، أريد منك أن تقرأ الآية وتقرأ معناها، أن تفهم الآية وتتدارسها حتى تتلبس بها وتصبح عقيدة لديك، حتى يصبح قلبك مشحون بهذه الآيات، هذا هو طريق بناء الإيمان، ولن ينفع شيء غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[1] لا يوجد سبيل آخر إلا أن تتشبث بآيات القرآن، تدرسها وتتمثلها حتى تبلغ وترتقي.. ويصبح قلبك حاضراً لا غائباً.

بعد أن ذكرت لك هذه البيئات أو الأركان الخمس، احرص الآن أن تكون ممن "يستمعون القول فيتبعون أحسنه"، نحن نصنع نواةً لأمة الإسلام، نصنع دعوة تعيد روح القلب النقي الطاهر..

هناك أناس ينشغلون ليل نهار لشراء جزمة رياضية أو ماركة عالمية، وممكن أن يفرط بأوقات الصلاة من أجل ذلك، علينا أن ننتقل لبيئة صالحة، فلا تقل لي: لا أجد صالحين، لقد دللتك كيف تصنع بيئة صالحة: بالقراءة، بالاستماع، بالتدارس، والتطبيق.

[1] سبأ: ٤٦.

الركن الثاني: الأحوال الصالحة

قال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾[1].

الركن الثاني لتنقذ قلبك وتصلحه: ابحث عن أحوال صالحة..

وهذا موجود في القرآن الكريم والسنة، قد لا تجد صالحين حولك، أو تجد ولكن أقرب رجل صالح تعرفه بعيد عنك، أو أنه مشغول، لذلك ابحث عن أحوال الصلاح..

ما هي أعلى نقاط الصلاح في حياتنا؟

ابحث عنها..

تجد شخصاً تائباً..

وآخر كان في محنة فسرق مالاً، فلما سرق انتفض وظل يتوب إلى الله ويتصدق، لأنه لم يجد من سرق منه، وأعرفه شخصياً، سرق مبلغاً كبيراً من صاحب محل القماش الذي كان يعمل فيه، ظلّ يتوب إلى الله عشرات السنين، هذا الإنسان في لحظة توبته.. في حال صالحة.

إنسان آخر تعرض ابنه لحادث سير، ودخل الآن غرفة العمليات بين الحياة الموت، يبكي ويضرع إلى الله ويدعو، ويتخلص مما عنده من الحرام.

رجل آخر يملك شركة ضخمة، دخل ابنه المشفى وكان بين الحياة والموت، جاءه فراش المكتب وقال له: تأمنني أن أقول لك شيئاً؟ قال: نعم قل، قال: يا سعادة الباشا، خيرك كبير عليّ، خذ هذه الـ ٥٠٠ جنيه دين مني لك لتعالج ابنك بها، لأنك تتعامل مع بنوك وأموالك ربوية وفيها حرام، نريد أن نعالج ابنك بمال حلال، ولو أملك أكثر لكنت أعطيتك.

هذا الرجل المليونير ارتجّ من الداخل، أصبح كل ما يملك بالكامل لا يساوي شيئاً، ولا يستطيع أن يعالج ابنه بمال حلال إلا بصدقة من فراش المكتب!

[1] الكهف: ٢٨.

كانت هذه الحادثة تحولاً في حياته، يقول: سَرَت فيّ كلمات الفراش كالكهرباء، وعندما جاء يرجع المبلغ للفراش، رفض الفراش وقال له: سامحني لا أستطيع أن آخذه، أعطيتك مال حلال لا أريد أن آخذه حرام!

إنسان آخر مات له عزيز فجأة، زوجة مات زوجها الذي تحبه..

فتش عن أحوال الصالحين.. عمن يتوب.. يضرع إلى الله، ابحث عن المسلمين الجدد.. من أسلم بسبب آية سمعها..

الركن الثالث: معايشة المنكسرين

قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١ ﴾[1].

اذهب لهذا المكسور لترى كسرته، انظر لمن يدخل المستشفى بين الحياة والموت، انظر لمن دخل القبر بعد أن كان ملئ السمع والبصر، انظر من كان غنياً وأفلس في لحظة، انظر من كانت تقف له الدنيا والآن أصبح لاشيء.

أعرف من كان إذا أراد شيئاً فقط باتصال واحد يكون ما يريد، فلما مات أبوه صار الولد مطروداً من الأبواب، لأن أبوه صاحب المنصب مات.

الركن الرابع: معايشة الأماكن مظانّ الصلاح

اذهب إلى عرفات.. منى..

اذهب إلى المساجد، حتى لو كنت سيئاً، وجودك في المسجد يجعلك أفضل ولو شيئاً يسيراً..

اغرس نفسك غرساً في بيئة الإيمان، الزم هذه البيئة..

---

[1] يوسف: ١١١.

حلقة قرآن.. رباط في سبيل الله.. صف قتال في سبيل الله..
لذلك قال النبي في الحديث: "ورجل قلبه معلق في المساجد".

الركن الخامس: معايشة الصالحين أنفسهم

لا تقل لي إنهم غير موجودين، بل موجودون، ولو وصلت لواحد منهم فقط ستجد شبكة غير مرئية ستوصلك لبقية الصالحين حوله، لأنهم يتقاربون من بعضهم.
لكن عندما تجد أحد الصالحين ستجده مشغولاً، لا تقل له: أريد أن أزورك، أريد أن أجلس معك، أريد أن أمشي معك.
بل ادخل أنت في حياته، اخدمه.. تواجد في حياته دون أن تشكل عبئاً عليه.
ولا تظن أني أقصد بالصالحين النجوم اللامعة، وكبراء الدعاة والعلماء، لا..
أعرف رجلاً اسمه (عبد القادر)، كان لا يترك صلاةً في المسجد، ولا يجد محتاجاً إلا وقف معه ليعينه، كنت أقول له وأنا صغير: لماذا تفعل هذا؟ فيقول لي: هؤلاء عندما أذهب إليهم قلبي يتعلم.
مثلاً: وجد امرأة تقود سيارة، انفجر إطار السيارة، وقف معها وساعدها.
أعرف صالحاً آخر.. يتيم مات أبوه وأصبح يخاف من الناس، جعل نفسه حارساً على أمنه دون أن يخبره بذلك ودون أن يكلفه أحد بذلك، وقال: هذه قربتي إلى الله، أي يتيم أجده سأكون مدافعاً عنه لئلا يظلمه أحد.
فالأب قيمته الحقيقية الذوذ والدفاع عن ولده.
فتش عن الصالحين، وادخل حياتهم، ولازمهم، وعش معهم..
تأمل قصة تلك الصحابية الجليلة.. عندما هاجر النبي من مكة إلى المدينة، أقبل كل صحابي يعزمه على بيته، وآخرون يرسلون له الطعام، وآخرون يساعدونه في بناء المسجد، جاءت هذه الصحابية وفكرت: ماذا سأفعل أنا؟ أنا امرأة لا أستطيع أن أذهب، سآخذ ابني الصغير صاحب العشر أعوام، وأقول للنبي: خذه يخدمك ويكون بجوارك دائماً، رمت ابنها

داخل بيت النبوة، وظل يلازم النبي ليل نهار، في اليقظة والمنام، انظر كم تعلم وأدرك من حكمة وسنة ومنهج!

استطاعت أن تغرس ابنها في بيئة الإيمان، وأي بيئة، بيئة النبوة..

تعلم الصبي من سن عشر سنوات إلى عشرين سنة.. حتى أخطر سن: المراهقة، قال: خدمت النبي عشر سنين، ما قال لي مرة لشيء عملته لم عملت ذلك؟ ولا لشيء لم أعمله لم لم تعمل ذلك..

هذا هو أنس بن مالك.. من أطول الصحابة عمراً، ومن آخر من توفى منهم، جعل الله فيه البركة وعاش حوالي مائة عام.

ابحث عن الصالحين وأدخل نفسك في حياتهم..

مثلا.. أنت تعرف إعلامي ترى أنه من الصالحين، اسأله: عندما تجوعون في العمل كيف تأكل؟ سيقول لك: نحضر الطعام من المكان الفلاني، ائت أنت إليه بطعامه وشرابه، فلا تضيع وقته وفي نفس الوقت تجالسه وتتاح لك فرصة الاحتكاك به وصلته.

أحدثك عن الميدان الذي تصنع فيه نفسك..

تعايش الله..

تعايش النبي..

تعايش الصالحين..

تعايش أحداث الآخرة..

تعايش أحوال الإيمان والصلاح..

تأمل كيف سيكون شكل وحال القلب بعد كل هذا!

نريد حياة بهذه الصورة وهذا الاكتمال..

لذلك كان النبي يدخل فتحوطه الجواري الصغار، ويهربن عندما يأتي عمر، فيقول لهن عمر: تهابن مني ولا تهبن رسول الله!

النبي أكمل إيماناً، فمن كمال إيمانه أنه كان قريباً من الناس.. نريد أن نصنع قلباً قريباً من الله كقلب النبي..

استصحب معك من حولك ممن تعايشهم

إياك أن تصلح قلبك وحدك، إذا لم تصلح قلوب من حولك معك، سيتحول من حولك إلى عوائق أمامك.. زوجتك، أولادك، أبوك وأمك، زملاء العمل... وذلك لأنك لم تستصحبهم معك.

البعض لديه مكان خلوة خاص للصلاة والعبادة في بيته، يدعو فيه: يا رب يا رب، ولكن ابنه في الخارج ينادي عليه: يا أبي، فيغضب الرجل عليه، أنت المخطئ، علّم ابنك الخلوة معك أو وحده، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[1] ويقول: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[2]".

لن ينفع ويجدي أن تصلح قلبك وحدك:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾[3].

كنت أعرف محامياً لديه في مكتبه بلكونة، عندما يأتي وقت الصلاة يصلي بالناس فيها، وفي نفس المكان وضع كتاب رياض الصالحين، بعدما ينتهي من الصلاة يفتح الكتاب ويقرأ ثلاثة أحاديث ثم يختم ويقوم، هذه الأحاديث الثلاثة ممكن أن تعلق بعقل أو قلب أحدهم، فبدلاً من أن تكون أنت من يحملهم وترفعهم، يصبحوا هم من يعينوك، بدلاً أن يكون عوائق لك يصبحوا معك، وهكذا في كل من هم حولك بما فيهم بائع الخضار وبائع الخبز، يأتي يوم يقول لك: أنت قلت لي أن الاستغفار يزيل المحن ويفرج الكروب، فتقول

[1] طه: ١٣٢.
[2] التحريم: ٦.
[3] التحريم: ٦.

له: بارك الله فيك، وإن كنت أنا من قلته لك، ولكني الآن في عز المحنة أحتاج من يذكرني، فذكرتني أنت.
ابنك.. أخوك.. أبوك.. زوجتك.. زملاءك.. إما أن تحولهم عوائق، وإما أن تحولهم معينين لك، وتصبح حركة القلوب واحدة إلى رب العالمين.

دور الجوارح في صلاح القلب

ما زلنا نفتش كيف نصنع لقلوبنا بيئة صالحة مؤمنة تنهض بالقلب وتطهره؟
إن جسمك يوصل رسائل للقلب عن طريق الحركات التي تؤديها، فعندما تنام على جنبك اليمين توصل رسالة لقلبك بخلاف ما لو نمت على جنبك الشمال، تركع وتسجد فتوصل رسالة لقلبك غير أن تكون مرفوع الهامة، لذلك المبدأ أن تجعل هذا الجسد يوصل إلى القلب رسائل تصب في إصلاحه وعلاجه.
والقرآن والسنة تكفلتا بتأصيل هذه الفكرة ولها شواهد كثيرة، فمثلاً: أنت تعرف أن الرسول "صلى الله عليه وسلم" كان يجلس مرةً كجلسة العبيد، فقال له رجل: مالك تجلس جلسة العبد؟ فقال: "إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد" يوصل رسالة إلى قلبه تكسره لربه.
وكان أكثر نظره "صلى الله عليه وسلم" إلى الأرض أكثر منه إلى السماء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾[2].
يسجد ويرفع ويركع ويقول: "سبحان ربي الأعلى"، "سبحان ربي العظيم"، يستغرق في النوم ثم يستيقظ لأجل "حي على الصلاة"، فيتوضأ ويقف في المحراب يقول "الله أكبر"، كلها أمور وأفعال يقوم بها البدن ولكنها توصل رسالة للقلب أنه عبد منكسر لربه عز وجل،

[1] الإسراء: ٣٧.
[2] الفرقان: ٦٣.

وإذا توقف العبد عن إعطاء هذه الرسائل الواضحة للقلب يتحول إلى جبار من جبابرة الأرض.

أحضر مكنسة واكنس مسجد على مرأى من الناس، مهما كان منصبك.. حتى لو كان لديك فراش أو خادم يمكن أن يخدمك، فهذا هو ما يدمر القلوب ويضيعها، أنك تجد من يفتح لك باب السيارة، وآخر يفتح لك باب المصعد!

هذه امرأة عجوز سوداء كانت تكنس المسجد على عهد النبي، وماتت ولم يخبروا النبي "صلى الله عليه وسلم" بذلك، فلما افتقدها وسأل عنها قالوا له: ماتت، فأنكر عليهم وقال لهم: لم لم تخبروني؟ دلوني على قبرها، وذهب وصلى عليها.

والرسول نفسه كان يكنس بيته، فاذهب أنت إلى المطبخ حتى لو كان لديك بنات، فالنبي "صلى الله عليه وسلم" كان لديه بنات لكنه كنس بيته بنفسه، وكان يخصف النعل، يريد النبي "صلى الله عليه وسلم" بذلك أن يوصل رسالة إلى القلب أنه ليس جباراً.

يحمل النبي "صلى الله عليه وسلم" مع الصحابة الحجارة، فيقولوا له: نحن نكفيك يا رسول الله، فيقول: "لست بأغنى عن الأجر منكم"، رغم أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيصلي ويقوم الليل، ليكون عبداً شكوراً.

كان النبي "صلى الله عليه وسلم" لا يحدّ البصر إلى أحد أبداً، إنما معظم نظره الملاحظة، أي ينظر إليك ليشعرك أنه معك مهتم بك ويودك، ولكنه لا يجترئ عليك ولا يطيل النظر إليك أو يحد النظر.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

المقصد الذي نريد أن نبلغه: اجعل من جسدك مصدراً لرسائل تجعل القلب في وضعه الطبيعي كما يريده الله عز وجل دون تكبر أو عجب.

كان النبي "صلى الله عليه وسلم" يجلس حيث ينتهي به المجلس، انظر لنفسك ماذا تفعل؟ هل تنتظر أن يوسع لك الناس في مكان بارز وسط المجلس؟

[1] لقمان: ١٨-١٩.

كان الصحابة يفعلون ذلك للنبي "صلى الله عليه وسلم" ولكنه كان يدفعهم بين يديه ويرفض ذلك، هذه رسالة لقلبه ليرق ويتواضع.

قد تجد اثنان: دكتور، وخادم، لو وقع المفتاح من يد الدكتور ينزل الخادم ليرفعه له، لكن لو حدث العكس لا ينزل الدكتور أبدا، لماذا؟!

رأيت رئيس دولة يناول أحد الحجاج الحذاء على عرفات، بعدما فقده.

ما لم نكسر أنفسنا لرب العالمين، فلن يكون لنا قلوب سليمة تنفع.. وكسر القلوب لله هو منهج "واخفض جناحك للمؤمنين".

الصائم يعطش ولا يستطيع أن يمد يده إلى الماء، فتحصل له كسرة لله.

عندما يمدحك أحدهم، الإسلام يقول لك: احثُ في وجهه التراب.

كان الصحابة يفعلون بعض الأمور ستستغربها حتى تفهم هذا المعنى، كان عبد الله بن عمر يمشي على أثر أقدام النبي، كأنه يعطي رسالة لقلبه أن يتبع هذا الرجل ويسير كما كان يسير.

كان النبي "صلى الله عليه وسلم" يأكل من القصعة، وعندما ينتهي تذهب القصعة إلى أهل البيت، فكانوا يتقصدون الموضع الذي كان يأكل منه النبي "صلى الله عليه وسلم"، ليؤكدوا في القلب معنى اتباع أثره ومنهجه.. وهكذا.

في الردة، قال أبوبكر الصديق: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه للنبي لقاتلتهم عليه، إنما أنا متبع لا مبتدع"، نفس المعنى يقرره ويغرسه في قلبه.

ومن هذه الرسائل أيضا: سنة التيامن.

فلا تفرط في إرسال رسائل من بدنك لقلبك..

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾[1].

[1] الحج: ٤٦.

القلب ليس مجرد عواطف إيمانية

يجب أن نقف أمام فكرة في غاية الأهمية، وهي أننا عندما نتكلم عن قلوبنا لا نقصد بالقلب مجرد العواطف الإيمانية، ليس مجرد الخشوع والإخبات أو التفاني في الضراعة، لا.

هذا هو الذي ضيع الأمة الإسلامية طوال قرون من الزمن، أنها أصبحت لا ترى من أعمال القلب إلا صنف واحد فقط وهو النصف السهل الذي لا مشكلة فيه، شخص يدخل غرفة وينادي: يا رب يا رب، وحسب!

نعم الدعاء له قدر ومكانة عظيمة وكبيرة جداً ومهمة، فالدعاء هو العبادة، وهو سهام تصيب، ولكن هذا الأمر سهل ويسير.. أن تدعو ولا يراك أحد وتظل تدعو، حتى وإن قلت: يا رب أهلك الطاغية فلان.. لا أحد يسمعك.

أما عندما يتحول الأمر إلى أعمال القلب الأخرى، فوراً تنقلب الموازين، نحن نريد قلب جسور أيضاً، وتعال أنقلك إلى حديث خطير، يقول فيه النبي "صلى الله عليه وسلم": "من رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبقلبِه، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ مثقالُ ذرةٍ"[1] إذا وصل القلب إلى درجة لا يستطيع فيها أن يقاطع الحرام، فلم يبق فيه حبة خردل من إيمان.. فيجب أن تخاف على قلبك، وتحرص أن يكون فيه إيمان.

لا يجوز أن أظل أكلمك عن قضايا الإسلام ليحيا قلبك، ثم يكون جدول يومك لا يوجد فيه ساعتين تعمل فيها للإسلام.

انتبه.. هل قلبك يعمل ما يريد الله، أم يعمل ما يسيطر عليه وما اعتادت عليه؟

يجب أن يكون قلبك على مراد الله منك، لا على مراد قلبك وهواه.. يجب أن نتعلم ونفهم المنهج السليم ليتبعه القلب..

---

[1] صحيح.

عندما سمع عبد الله بن المبارك عن رجل يلزم الحرمين ويصلي ويدعو ويبكي، والناس تتبارك فيه، إنه الفضيل بن عياض الملقب بعابد الحرمين، أرسل له عبد الله بن المبارك أبيات الشعر الشهيرة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

إياك أن تزيف الدين وتحصره في نسك ودروشة وجلابية وعمامة ولحية فقط، ليس هذا مراد الله.

تأمل قصة ذلك الصحابي الذي لزم المسجد وتفرغ للعبادة، وأخوه كان ينفق عليه، فقال له النبي "صلى الله عليه وسلم": "أخوك أعبد لله منك"، كم أتمنى أن يدرك الإنسان هذه المعاني، لأننا وللأسف نعبد أفكارنا وتوهماتنا.. نتوهم أمر ونظنه هو الدين!

عبوديات القلب

نظن أن عمل القلب هو المعاني العاطفية فقط..

يجب أن نعبد الله طبقاً لما يقرره الشرع، والشرع قال أن هذه القلوب لها عبوديات متعددة، لا نريد أن يصاب القلب بالوهن والتخلف والانكسار والخوف والوجل والتواكل، لا تتصور أن القلب الصالح هو المفرط في التواكل الجبان الخائف المنسحب، لا وألف لا..

القلب الصالح هو الذي يعبد الله على النحو الذي أراده الله من فقه وجسارة وإخبات وخشوع وغيرها من أنواع العبادة.

عليك أن تتعلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو عمل عظيم في الدين، عندما تقف أمام الظالم.. "لا خير فيكم إن لم تقولوها"، أي لا خير فيك إن لم تستطع أن تقول للظالم (اتق الله)، فهذا قلب خلا من الخير.

نخشى أن تنحرف الأمة الإسلامية وتنسى، فالأمة دائماً ما ترث من الإسلام معنى كبير جداً، فتصغره وتختزله في معنى حقير أو صغير جداً! لذلك انحدرت أجيالنا وضاعت.

قال الله تعالى: "فتكون لهم قلوب يعقلون بها"، عمل القلب هو أن يعقل ويفهم، أنت مطالب أن تستخدم قلبك في تلقي الآيات وفهمها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1]، فلو كان القلب يبكي ويضرع إلى الله، ولكنه معطل عن الفهم والوعي والإدراك والعقل، فهو حينئذ معطل عن مهمته.

نحن نريد القلب الجسور.. القلب الذي يفقه..

لا أريد أن أكلمك فقط عن صورة العابد الزاهد الناسك، إنما نتكلم عن حياة القلب التي يريدها الله عز وجل، لذا لابد لهذه القلوب من آثار، مثلاً هناك موطن إذا عملت فيه عملاً معيناً فهو محرم، بينما نفس العمل في موطن آخر هو من المستحبات ومطلوب!

مثل ذلك الرجل الذي لبس عمامة عليها ريشة، وركب خيله يتبختر ويختال زاهياً بسيفه، فقال النبي له: "هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن"، موطن إغاظة العدو النكاية فيهم.. هذا الفرق مصدره القلب.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، إذا كنت صادقاً أنك تريد أن يحيى قلبك كما يريد الله، فيجب عليك ألا تجعل جدولك اليومي يصادم حركة القلب ويدور عكس حركة قلبك، فتريد أن تصلي الفجر مع أنك تعمل حتى منتصف الليل وتعود إلى البيت تجالس العائلة ثم تأكل وتنام مرهقاً قبل الفجر بوقت قليل! لن تستطيع أن تصلي الفجر.

[1] الأعراف: ١٧٩.
[2] الأنفال: ٢٤.

نريد القلب الحاضر اليقظ

أنت مكلف في الطواف أن تعد سبعة أشواط، وفي الصلاة تعد أربع ركعات، وفي قيام الليل تعد أحد عشر ركعة، وفي القرآن كذلك ورد محدد، حتى أثناء الصلاة من السنة أن تفتح عينيك.

رأي سيدنا عمر رجلاً يتمسكن في صلاته، فضربه وقال له: لا تمت علينا ديننا، وسمع النبي تلاوة أبوبكر الصديق وتلاوة عمر للقرآن، فقال لعمر: اخفض صوتك قليلاً، وقال لأبوبكر: ارفع صوتك قليلاً.

قد تقول: يكفي أن يسمعني الله، لماذا الجهر؟

الصلاة فيها الجهر وفيها السر، باختصار: يجب أن تقيم قلبك على منهج الله.. هذا هو الطريق..

نعم من العبادات القلبية الهامة: الدعاء، والإخبات، وقشعريرة القلب، والخشوع، لكن للقلب عبادات أخرى كالفقه والجسارة والشجاعة، ولذلك عندما تردد الصحابة في دخول بلد بسبب الطاعون، قال أحدهم: أنفر من قدر الله؟ فقال له عمر بن الخطاب: نفر من قدر الله إلى قدر الله، فاعتدل الأمر بفهم القلب، فمن ظلّ في داخل المدينة ومن في خارجها، كلاهما على يقين من قدر الله.

وفي معركة مؤتة، كان جيش المسلمين ٧٠ ألف، في مقابل جيش المشركين ٢٠٠ ألف، فلما تردد المسلمون قال لهم عبد الله بن رواحة: إن الذي تخافون منه لهو الذي ترجون، هنا يبرز الفقه والعلم والإدراك، وكلها عبادات قلبية.

فلا تختزل عبادات القلب وتقزمها في جانب واحد، وفي نفس الوقت أخشى عندما تسمع كلامي هذا أن تهتم بالجوانب الفكرية والعلمية والإقدام، وتترك الجانب الإيماني والإخبات والتعبد والمحاريب وقيام الليل، لابد أن تعبد الله على النحو الذي يريده هو، وإياك أن يصبح الاستسلام لأقدار الله والسكينة القلبية: كذب ومجرد ستر للتبلد الناتج عن آفة ومرض قلبي.

يريد الله منك أن تنتصر لربك ولدينك، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ ﴾[1]، يجب أن تفهم وتفقه متى تقتص، ومتى تعفو وتغفر؟ لأن قلب المسلم لا يساكن ويهادن ويقول: من ضربني على خدي الأيمن أعطيه خدي الأيسر، هذا ليس إسلام أبداً.

مستدعيات القلب

قال الله تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥ ﴾[2].

لا يكون القلب حاضر دائماً، هناك ساعات يتشتت فيها أو ينشغل، يشغلك أخوك أو عمك أو جارك، أو وظيفتك، ويغرق القلب في أمور الدنيا، ماذا أفعل لأنقذ قلبي من هذه الدنيويات؟

الحل في أمر أسميه: مستدعيات القلب.. تأتي بالقلب من بعيد وتعيده إلى حياته وسلامته وقربه من ربه.

ما هي هذه الأمور التي تستعدي القلب وتحضره إذا غاب؟

رتب عملاً خفياً لا يطلع عليه إلا الله عز وجل، احرص على عمل خفي لا يطلع عليه ويعلمه إلا الله عز وجل، وهذا أمر صعب ولكنه ضروري.

كما في قصة الثلاثة الذين سدت عليهم الصخرة باب الغار، وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: رجل تصدق بصدقة حتى لا تعلم شماله ما تصدقت يمينه".

لماذا العمل الخفي؟

لأن هذا يستدعي القلب ويحضره من بعيد، ويظل هذا العمل يؤثر فيك، قد ترى رجل معين، فتقول في نفسك: هذا الرجل لا يعرف أني من وضعت له مبلغ المال من تحت الباب، وكان خطيب ابنته سيتركها، فلما أخذ هذا المبلغ تيسرت الأمور وانتهت المشاكل بينهما، فيظل هذا المعنى يدق ويؤثر في القلب.

---

[1] الشورى: ٣٩.

[2] الحج: ٣٤-٣٥.

وعندما يتكرر هذا المعنى في القلب عدة مرات، ستجد في طريقك دائماً أمور تذكرك، فصار عندك مخزون أعمال خفية ترى أثرها في صلاح قلبك وطهارته ونقائه.
ادخر لنفسك أعمال خاصة عند الله، عمل تلو عمل، اشتر فواكه وضعها أمام بيت فقير دون أن يعرفك أحد، أدخل السرور على قلب مسلم، ارحم يتيماً.. تصدق بصدقة ولو صغيرة، قال النبي: "إن الله يربي لأحدكم صدقته كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل جبل أحد".
هكذا توصل رسائل للقلب أن يتعلق بالله لا بأحد سواه، فلا أحد يعرف ما فعلت إلا الله عز وجل.

انشغالات القلوب

وفي سبيل تزكية القلب وإصلاحه، لابد من الحديث عن أمر خطير ومهم، ألا وهو: انشغالات القلوب..

أفرغ قلبك أولاً مما فيه ومما يشغله:

الإنسان ربما ينشغل عن نفسه بالآخرين، لذلك قال العارفون: (طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس).
يظل الإنسان ينظر إلى من حوله، فإذا جاءته آية من الله، تجده ليس متفرغاً لها، فلا ينتفع بها والعياذ بالله ولا يزكي نفسه!

كيف تعرف ما يشغل قلبك؟

لذلك خلق الله فينا شيئاً مهماً وهو (السرحان)، أنا الآن أكلمك وأنا منتبه، أفكر فيما أقوله لك، لكن عندما يسرح الإنسان فإنه في هذه اللحظة يطفو على عقله وتفكيره الشواغل التي تشغل قلبه، بدون تدخل منه، هكذا جعل الله طبيعة الإنسان.

تجلس الآن منتبهاً، وفجأة تسرح، بعد أن ترجع من سرحتك، عليك أن تفكر في هذه اللحظة:

في ماذا كنت أفكر وسرحت؟

فلتخرج ورقة وقلم من جيبك، واكتب الموضوع الذي سرحت فيه..

مثلاً: كنت أفكر في أولادي.. في عملي.. في صحتي.. كنت أخشى على مالي.. أفكر في الخصومة التي بيني وبين فلان.. يضايقني وأضايقه.. في المقلب الذي أخشاه من زميلي في العمل..

اكتب..

وضع الورقة في جيبك..

حتى إذا ما كررت ذلك مرتين وثلاث وعشر مرات..

أخرج هذه الورقة وتأمل فيها..

هذه الورقة هي صورة قلبك تماماً..

فإذا وجدت الورقة مليئة بموضوعات دنيوية، تخص المال مرة، والأبناء مرة، والعمل مرة، والوجاهة مرة.. فلتعلم أن قلبك قد وقع أسيراً في حب الدنيا، وأنه لم يعد فيه محل يتذكر فيه الله ويقبل عليه.

إما إذا وجدت أنك سرحت مرة في مَن يؤتى بهم ليدخلوا إلى الجنة فتوقفهم الملائكة ويمنعونهم، هل ينطبق عليك هذا الموقف أم لا؟

ووجدت نفسك مرة تفكر في الذي يجتاز الصراط ويدخل الجنة، فيأتي خُطّاف من الخطاطيف يشده إلى قعر جهنم..

حينئذٍ يدرك الإنسان أنه مشغول بسوء العاقبة وبأنه يخشى على نفسه من ذلك..

لحظات السرحان نعمة من الله عز وجل، لأنها تكشف ما هو قلبك وما في داخله.

يجب أن تعرف أن ما يحيط بنا، تصرفاتنا وأفعالنا وأفعال الآخرين.. كلها مجرد خيال على الحائط لما في قلوبنا.. فالحياة التي تعيشها مجرد صورة لما قلبك.

ما يظهر للناس: ناس تشتم، ناس تسرق، ناس تتنافس على الدنيا.. هذه التصرفات والسلوكيات صورة لما في القلوب، ولن يفلح يوم القيامة "إلا من أتى الله بقلب سليم"، فلكي

يعرف الإنسان ما في قلبه لا يحتاج أن ينتظر الآخرة، بل يستطيع الآن أن يعرف ذلك من خلال شواغله وسرحاته، وبما يفعله بين الناس، هذا هو ما في قلبه.
يقول الله عز وجل عن يوم القيامة: "وحصل ما في الصدور"، كالمغرفة تدخل فتخرج ما في الصدر من خواطر واهتمامات، وتنثرها.
ويقول الله عز وجل: "يوم تبلى السرائر" أي تختبر السرائر، وتصبح القلوب كالكتاب المفتوح.

قلبك.. بماذا مشغول؟

أولاً: بالدنيا

حين أجلس معك فتقول لي: هل رأيت موديل السيارة الجديدة هذا العام؟ هل رأيت مواصفاتها؟.. أنت بهذا شغلت قلبي بشيء، وانشغلت أنت أيضاً به، ويظل التشاغل يتنامى ويصبح الكلام عن الدنيا.. عن البيوت.. عن المسابقات.. عن دنيا الفنانين والممثلين.. عن الوظائف الجديدة.. عن وعن وعن.. حتى تحتل الدنيا قلوبنا، فلا تستجيب للموعظة لأنها مشغولة جداً.
في أحد المرات ذهبت أخطب الجمعة في مسجد لأول مرة، يصلي فيه عوام الناس، لا أحد يريد أن يستمع للخطيب، فقط همه أن يقضي الدقائق وتمر دون أن ينتبه، هو فقط يسقط الفريضة، هذا الإنسان قلبه مشغول بالدنيا.
عندما تفكر المرأة في طبيخ الغد، وعندما يفكر الرجل في عمل الغد، وابني عندما يفكر في الامتحان... قال الله تعالى عن الذين يبعدون عن شرع الله: "يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون"، يعرفون أمور الدنيا جيداً، ويتكلموا فيها.. الملابس والسيارات وغيرها..
ولكنه يتكلم عن الآخرة خمس دقائق فقط، ولكن لو أردته أن يكلمك عن شئون الدنيا يمكن أن يستمر لسهرة كاملة يتكلم حفظاً!

ثانياً: بالمعصية

كل معصية تضع على القلب غلاف، حتى تصير القلوب مغلفة، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]، ما كانوا يكسبون من المعاصي والآثام، تتحول إلى غلاف على قلوبهم، فتأتي الموعظة فتجد القلب مغلق كما قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾[2]، ولذلك كانت شرعة الله تقتضي أن تخلي القلب ليستجيب.

ثالثاً: الانشغال بالآخرين

قيل: (طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الآخرين)، إذا وجدت في أحد عيباً ادع الله له، وحاول أن تفتش عن عيوبك أنت.

اسمع هذه القصة الرائعة للصادقين، الذين يريدون فعلاً أن يقيموا أنفسهم على طاعة الله ومرضاته، اختلف الناس أيهما أفضل: فلان أم فلان، يتكلمون عن شخصين، فقال كل الجالسين: فلان أفضل، وقال الشيخ العارف: فلان الآخر أفضل، استغربوا ذلك، وقالوا له: فلان أفضل منه صلاةُ وسمتاً وسناً، قال لهم: سأطلعكم على اختبار، إذا جاء أحدهما فقال: السلام عليكم، فلا تردوا عليه السلام، وإذا جاء الثاني افعلوا نفس الشيء، فجاء الأول وقال: السلام عليكم، فلم يجبه أحد، وكرر السلام فلم يجبه أحد، وكرر ثالثاً نفس الشيء، فقال: ألقي عليكم السلام كذا مرة ولا تجيبوني! أنا غلطان أني أتيت، لو ذهبتُ لآخرين وسلمت عليهم لردوا، وخرج وقال: لن آتي لكم بعد ذلك.

قال الشيخ: أرأتيم؟ فقالوا: معه حق، أسأنا إليه بعدم رد السلام، ورد السلام واجب.

جاء الثاني وقال: السلام عليكم، لم يردوا عليه، وكرر ثلاثاً فلم يردوا عليه، فقال: سبحان الله، أنتم قوم صالحين وأهل خير، أُلقي عليكم السلام ولا تردون عليّ! أستحلفكم بالله أن تخبروني بالسبب لأصلح نفسي.

انظر الفرق بينهما!

---

[1] المطففين: ١٤.

[2] الأنعام: ٢٥.

الأول أخذ من عدم ردهم السلام أنهم مخطئون، والثاني أخذ من ردهم السلام أنه هو مخطئ في أمر ما، هذا الفارق بين مسلم يبتغي الجنة وبين مسلم منشغل بعيوب الخلق يناقش هذا ويقيم هذا ويزن هذا.

الذي ينشغل بنفسه يقول الله تعالى في شأنه: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾[1] هو إنسان وقّاف، يقول الله فيه أيضاً: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾[2] ينيب أي يرجع، وقال الله عن نبيه: ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٣٠ ﴾[3] أي رجاع، يرجع فلا يمكن أن يتذكر إلا من يرجع باستمرار إلى الله.

لا تنشغلوا بالخلق..

ولا تنشغلوا بالدنيا..

ولا تنشغلوا بالمعاصي وترتكبوها..

لا تشغل قلبك بشيء يزاحم محبة الله:

لأن القلب لا يتحمل هذه الزحمة، قلوبنا بطبيعتها مزدحمة بحب الأبناء والزوجات والمال والأهل والسيارة، هذه الزحمة هي التي تجعل الإنسان يبعد عن أن يكون قلبه خالياً.

سأدلكم على مثال لكل صادق يريد أن يسلك الطريق إلى رب العالمين.. شاب ذهب يخطب فتاة، يحبها حباً جماً، ثم تمضي عشرة أعوام بعد الزواج، يألفان بعضهما ويتعودان على بعضهما، لا شك أن علاقته بها زادت، لكن قلبه وذهنه صار ينشغل بأمور أخرى.. كذلك الناس في حياتهم اليومية، يدخل دورة المياه بالتأكيد يومياً، ولكن – على أهمية هذا الأمر – من منهم يفكر ليل نهار في هذا الأمر؟

كذلك كلما عطش أخذ كوب ماء وشرب، لكن من يظل يفكر ليل نهار في كوب الماء؟

وهكذا من يبحث عن عمل، عندما يبدأ العمل يعتاد عليه..

---

[1] القيامة: ١-٢.

[2] غافر: ١٣.

[3] ص: ٣٠.

هكذا انشغالات القلب.. بعضها يحلّ مكان بعض، ما يدخل القلب يخرج شيء بدلاً منه، لذلك أخرجوا من القلوب انشغالاتها بالدنيا، وحاول أن تجعل ممارستك للدنيا عادية، يأتي مال تنفقه وتعيش به، ولكن إذا تحولت إلى "جمع مالاً وعدده"، وتعد وتحصي ما تجمع من مال، بهذا انتقل الأمر من الممارسة اليدوية إلى الممارسة العقلية.

أحد البقالين كان يبيع ويشتري، وفي نهاية اليوم يقفل خزنة المال ويغلق المحل ويرجع إلى بيته، لا يكاد يحسب ويحصي، فلما كبر ابنه وأصبح يعمل معه قال له: يا أبي، يجب أن تحسب وتعد، فأخذ بكلام ابنه، يقول الأب: والله ذهبت بركة كنا نحياها، لأن النقود انتقلت من أيدينا إلى عقولنا، وصرنا نفكر كم ربحنا هذا الأسبوع، وكم ربحنا الأسبوع الماضي، ولماذا قلّ الربح؟
انشغلنا بالدنيا..

تخففوا من زحام الحياة.. تخففوا من الانشغال بالدنيا والآخرين والمعاصي..
ويوم القيامة يحشر الناس بحسب ما كان في قلوبهم، يقول الله عز وجل: "يوم ندعو كل أناس بإمامهم"، فمن كان إمامه المال يخرج الله المال يوم القيامة مجسداً، فيخرج من ورائه خلق كثير يسيل لعابهم وراء الماء، فضيحة وأي فضيحة.
وهكذا من كان إمامه النساء، والجاه... لأن القلوب افتضحت يوم القيامة..

باختصار:
إن الله جعل لك القلب لتفرغه من الهموم والشواغل، وتفرغه لمراد الله جل وعلا.
فاجعل انشغالك بالدنيا طبيعي.
قارون كان يملك مالاً كثيراً، وكان كافراً، قال له قومه: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾[1]، ولم يقولوا له: ابتغ فيها الآخرة والدنيا، إنما الآخرة فقط، وأثناء ذلك لا تنس شيئاً من الطعام ومن النوم لتقوى.

[1] القصص: ٧٧.

تماماً كطفل صغير يذهب إلى المدرسة يومياً، تسأله: ماذا تأخذ في المدرسة؟ فيجيب: آخذ ساندويش، هو لم يعرف بعد التعبيرات: عربي، حساب، وغيره، وإنما يأخذ معه ساندويش، تصوره أن الهدف من المدرسة أن يأخذ ساندويش، وإنما هو يذهب ليتعلم ويأخذ الساندويش ليتمكن من إكمال اليوم، فلا يمكن أن تتحول الوسيلة والأداة إلى هدف.

لذلك قال الله تعالى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ ﴾[1]، ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ ﴾[2].

هذه التزكية والإصلاح للقلب هي التي تعجل المواعظ تؤثر في القلب ويستقبلها ويستفيد.

القلوب مليئة بالغبار والأوساخ والأمراض، وما ينقي وينظف القلب: التوبة والأوبة إلى الله، المسجد، الصلاة، ذكر الله، العلم الشرعي، حتى يحيا يسمع القلب الموعظة فيحيا بها.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥ ﴾[3].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

---

[1] الذاريات: ٥٧-٥٨.
[2] الذاريات: ٥٦.
[3] الأنفال: ٢٤-٢٥.

جدول المحتويات

تقديم ٢

مقدمة ٣

عمل القلب ٤

أحوال القلوب ٥

كيف تصل إلى ذلك؟! ٥

القلوب المريضة والسليمة ٧

إصلاح القلب قضية الإسلام الكبرى ٨

قلوب خطيرة ٩

خفاء القلب ١٠

انحراف في الفهم والعمل ١١

القلب أثر لبيئته ١٢

لا تصاحب إلا مؤمناً ١٣

كيف النجاة من المجتمع الدنيوي؟ ١٥

كيف تصلح قلبك؟ ١٦

الركن الأول: معايشة البيئات الخمس ١٦

أولاً: معايشة النبي "صلى الله عليه وسلم" ١٦

ثانياً: معايشة الصالحين ١٧

ثالثاً: معايشة الآخرة ١٨

رابعاً: معايشة قضايا الإسلام ١٩

خامساً: معايشة كلام رب العالمين ٢٠

الركن الثاني: الأحوال الصالحة ٢٢

الركن الثالث: معايشة المنكسرين ٢٣

الركن الرابع: معايشة الأماكن مظانّ الصلاح ٢٣
الركن الخامس: معايشة الصالحين أنفسهم ٢٤
استصحب معك من حولك ممن تعايشهم ٢٦
لن ينفع ويجدي أن تصلح قلبك وحدك: ٢٦
دور الجوارح في صلاح القلب ٢٧
القلب ليس مجرد عواطف إيمانية ٣٠
عبوديات القلب ٣١
نريد القلب الحاضر اليقظ ٣٣
مستدعيات القلب ٣٤
انشغالات القلوب ٣٥
أفرغ قلبك أولاً مما فيه ومما يشغله: ٣٥
كيف تعرف ما يشغل قلبك؟ ٣٥
قلبك.. بماذا مشغول؟ ٣٧
أولاً: بالدنيا ٣٧
ثانياً: بالمعصية ٣٨
ثالثاً: الانشغال بالآخرين ٣٨
لا تشغل قلبك بشيء يزاحم محبة الله: ٣٩